Kufa Journal of Arts
September 2026. No. 69, P 239-249
Faculty of Arts, University of Kufa.

مجلة آداب الكوفة
العدد ٦٩، ايلول ٢٠٢٦م، ص ٢٣٩-٢٤٩
كلية الآداب، جامعة الكوفة

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

أَزْمَةُ المَرْأَةِ المُثَقَّفَةِ في رِوايةِ "إذا الأيامُ أَغْسَقَت"

م.د. سَحَر شُبّر
كُليّة الصيدلة - جامعة الكوفة
saharh.shubbar@uokufa.edu.iq

الملخص:
هذا البَحثُ الموسوم " أزمة المرأة المثقّفة في روايةِ إذا الأيامُ أَغسَقَتْ " لـحياة شَرارَة، هو قراءةٌ ذاتُ مَنْحَيين، أولهما، إنّما الأدب وجنسهُ الرّواية بمنشئِهِ يَجْنِي مَزيَّاتٍ مُصْطَبِغَةً بما يفاوُتُهُ عن غيره، وكيفَ والمُنشِئة مرأة مُثَقَّفَةٌ وأديبة أكاديمية، نَذْري أنّ وراء مدارج حياتِها وأكنافِ عوالمها ما يحفزُ العملَ الأدبي، ويُغَذِّيه من غِلال الفِكر والتاريخ؛ وحياة شرارة ما تنفكُّ تَتلعُ شاهدَةً عراقيّةً فَاعِلةً في تاريخ الأدب والسياسةِ والجامعةِ، وهذا ما نَذرَ حصولُهُ وانتُظِرُ وقوعهُ حتّى لا تُبَرَّأ القراءةُ هنا بمنحاها الثّاني عن غايةِ الإعجاب بهذه الأدبيةِ، وجدارة استنطاق مَسْرُودَتِها باشتراطٍ منهجي لم يُلْفَ في دراسةٍ ما.
وقد استقام البحث بمقدّمة موجزةٍ، وبمبحثين تتضمنهما فقرات وتفصيلات استوحيت من فصول الروايةِ، والمبحث الأوّل كان عن تبيان مفهوم الثقافة والمرأة ومدى اتّصاف شرارة بمصاديق المفهومين. والمبحث الثّاني استعرض الأزمة التي أحدقت بالأديبة وأسبابها الكامنة في ظلم السلطة وأساليبها في إيذاء الأفراد، وإذعان أصحاب الوعي اليقظ لإرادتها المستبدّة، وهذا مما خَلُص إليه هذا البحث.
الكلمات المفتاحية: الأزمة، المرأة المثقّفة، الرواية.

The Crisis of the Cultured Woman in the Novel "If the days are Dusk" for Hayat Sharara

Dr. Sahar Shubbar.
faculty of Pharmacy - University of Kufa.

Abstract:
This research, entitled “The Crisis of the Cultured Woman in the Novel "If the days are Dusk" for Hayat Sharara, is a reading in literature and its genre, the novel, by its creator reaps advantages that are distinct from others, but how and the creator is an literate, writer and academic entity, We know that behind the ways of her life and the shadows of her worlds What stimulates literary art and nourishes it thought and history; The life of Sharara continues to as an effective Iraqi witness in the history of literature, politics, and the university.
The research began a brief introduction, and two sections containing paragraphs inspired by the chapters of the novel. The first section was about clarifying the concept of culture and intellectual woman. The second section reviewed the crisis that befell the writer and its underlying causes in the injustice of authority and its hard methods.

Keywords: crisis, novel, cultured, woman.

DOI: https://doi.org/10.36317/kja/2026/v1.i69.16234
Kufa Journal of Arts by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4. 0 International License.
مجلة آداب الكوفة - جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠ الدولي.

المُقَدِّمَةُ:

هذا البَحثُ قراءةٌ ذاتُ مَنْحَيينِ، أولهما، إنّما الأدب وجنسهُ الرّواية بمنشئهِ يَجْنِي مَزيَّاتٍ مُصْطَبِغَةً بما يفاوُتُهُ عن غيره، وكيفَ والمُنشِئة مرأة مُثَقَّفَةٌ وأديبة أكاديمية، نَدْرِي أنّ وراء مدارج حياتِها وأكنافِ عوالمها ما يحفزُ العملَ الأدبي، ويُغَذّيه من غِلال الفِكر والتاريخ؛ وحياة شرارة ما تنفكُّ تَتلعُ شاهدَةً عراقيّةً فَاعِلةً في تاريخ الأدب والسياسةِ والجامعةِ، وهذا ما نَدُرَ حصولُهُ وانتُظِرُ وقوعهُ حتّى لا تُبَرَّأ القراءةُ هنا بمنحاها الثّاني عن غايةِ الإعجاب بهذه الأديبةِ، وجدارة استنطاق مَسْرُودَتِها باشتراطٍ منهجي لم يُلْفَ في دراسةٍ ما.

وَسَاوَقَت القراءةُ " إذا الأيامُ أَغسقَتْ" مُساوَقَةً لا تَتَعدّى أمرينِ صِيغَا في مَبحثين تردفُهما خلاصةٌ. المبحث الأوّل يلتقطُ المعاني القارّة لمفاهيم تنسج مَصابَّ هذا البحث، نحو الأَزمة والمرأة المُثقّفة، كما ينفذُ إلى حياة بطل أيام الرواية التي هي مُقتضب مُكثّف استمدَتْهُ شرارةُ من نفسِها وسِيرتِها ووجودها الواقعي الإنساني المحتدم. والمبحثُ الثاني ما يفتَأُ يُمْسِكُ بصور تلك الأزمة الحَاقَةِ بالبطلِ ـ الساردة شرارة ومقاساتها أثقالًا تجعلُ من حياة المرء كابوسًا مرعبًا ينطوي على اكتراثِ الوعي النَّير بمشكلاتِ الواقع العصيبة.

المَبَحَثُ الأول: حياةُ شَرارَة بين المفاهيمِ والتَّجْرِبَةِ.

أولًا: مفهوما الأَزْمَةِ والمَرأةِ المُثَقّفةِ:

المفهومُ هُنا حالةُ تَجَسُّدٍ ليست مجرّدةً أو بعيدةً عن مَن اعتنقَ أو تلبّسَتْ به أفكارُ ذلك المفهوم، أي تُترجم التصورات الكامنة في منطوقِ الأَزمة إلى مسارٍ حياتي لذواتٍ أو أشخاصٍ ذي حساسيةٍ خاصة في الوجود والمحيط الاجتماعي، والبحثُ وإن كان عنوانه يشي بتلك الذات وَشْيًا قَارًّا بنمطها المرأة المُثقفة ومقتربًا حدّ تعيينها بحياة شرارة؛ فإنّه قبل ذلك يَلْزَمُ أن يكفيَ القارئَ معنى الأَزمة، وهو ما ينطوي عليه أيُّ تضييق غير مُبَرر في أنظمةِ النشاط البشري، كأن يكون خِناقًا أو تَعسّفًا لم يرتضِه المنطقُ السليمُ في مزاولةِ الإدارة السياسية أو ما شابهها. مما تفضي هذه الحال إلى مصير كليٍّ تأريخي تُكَدّر فيه هويةُ الذوات الفاعلة، وهذه ليس لها خلاص من أطواق المصير إلا بتقوية حسها النقدي (آوثوايت، ٢٠٢٢، ٨٠٥) إزاء ما هو سلطوي ولا إنساني. ولعل إلماعة معجمية واصطلاحية لمفردة الثقافة قبل الإيغال في سيرة حياة تضيء للقارئ قصد هذه المقاربة الثيمية للرواية المُستهدفة. ومفردة الثقافة لا تتعدى في المعجم معنى إصابة العلم بالشيء وحِذْقه والقيام بما يحويه (ابن فارس، ١٩٦٩، ١: ٣٨٣)، ويقالُ:" ثَقُفَ الرجلُ ثَقَافَةً أي صارَ حاذِقاً" (ابن منظور، د. ت، ١: ٤٩٢) . وعادة يكون الحِذْق في المهارات والمعارف التي يتناقلها الإنسان، فتطبع سلوكه وعاداته وتحدّد أساليبه، مما ينشأ من ذلك ما يُسمى بالثقافة، وحدّها أنّها نظام تراتبي تتوارثه الأجيال من المعاني والرموز المجسدة في أشكال التعبير ووسائل التواصل بين الأفراد (كوبر، ٢٠٠٨، ١١٣). وفي ضوء هذا التصوّر تُعيّنُ الأزمَةَ في المجتمع تلك الأقليّةُ أوالصفوةُ التي يُقصد بها المثقّفون، وعليه يُحدّون بتمتعهم

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

بحساسيّة فَذّة للنقاء وبقدرةٍ خاصة على تأمّل صيغة العالم الذي يعيش فيه والقواعد التي تحكم مجتمعاتها، ولديها ما يحفّزها من الرغبة في البحث والتساؤل عن الرموز العامة، والمواقف الشاملة، وأدوات تعبيرها تتخذّ من الكتابة والتفكير والذوق المصقول والفن أو ألوان الأداء الأخرى سمة أساسية تميّز المثقف من غيره (سعيد، ٢٠٢٢، ٤٩) . وبجملة أخرى هذا الكيان الذي ينطبقُ عليه وصف المثقف بلغَ من الوعي مَبلَغًا يهيئه لِأن يكشف الصُّدوع الحادثة في البنى التي تقوم عليها شؤون الإنسان، ويصدر عن المرحلة التأريخية التي شكّلته ومجتمعه (سارتر، ١٩٧٣، ٤١)، وهذا المَبلغ لا يتسنى لغير من اكترثَ أو عَبِأ بِنَكَباتٍ حتّى لو كانت شحّ أمان الحياة اليومية، فكيف وهذه النّكبات مُنِيت بها المرأة المثقفة! ولا مندوحة من إظهار التّباين بين أن تَلتفَّ حِبالٌ غليظةٌ من تزييف الوعي وتجييش المجتمع وإفقاره، وتحطيم سُلم القيم الإنسانية، وتعنيف الأجيال وسوقهم إلى الجبهاتِ؛ أجل ثمّة تباينٌ بين أن تلتفَّ هذه الحبالُ حول رِقاب مثقفين يتمايزون بجنسهم، فالمرأة في المجتمعات المتخلّفة هي الأُس لكلّ ما من شأنه خلق الأزمات في شتّى الأصعدة، وإذا داخلَتها الثقافةُ وُوُسِمت بها، فإنّ التشنيع الاجتماعي والسياسي وحتّى الاعتقادي والثقافي يكون عليها أشد مما لو كان المثقف- الرجل محلّها، آنئذٍ رسالتُها القيمية يصعب الاعترافُ بها، والتزامُها المواقف النبيلة ينطوي على المخاطرة والجُرْأة والتعرّض للأذى، وحياة شَرارة مثال فريدٌ انطبقَ عليه شرطُ الكَيان النّسوي وشرط الثقافة.

إنّها أديبةٌ مُنشئةٌ وأكاديميّة ألمعيّةٌ ومترجِمةٌ قديرةٌ، التقت حينَ وُلِدَتْ عامَ ١٩٣٥ مدينةُ النجف بلبنانَ، وجرى في عروقِها دَمُ الأب الأديب والشاعر محمد شَرارة، ودَمُ الأُمِّ من آل الزَّين، وكلاهما لبنانيانِ حلّا النجفَ وقَطِناها ثُم انتقلا إلى بغداد، وأقاما بيتًا اكتنفَه ندى الربوع وصدى النهضة الأدبية في الغري ولُواحُ الثقافة المصطبغةِ بالسياسة في دار السّلام. وحياةُ طفلةً فيافعةً تنشأ في جو ذلك البيت وتدرجُ على نزعة أبيها إلى الأدب الرفيع والعربيّة العلياء وسعيه إلى إشاعة القيم النبيلة في المجتمع وإخلاصه في درسه وقلمه، ولا تفترُّ تُصغي إلى الشّعر الحديث وتُدوّنه في دفترها الصغير، حيث كان روّادُه بدر ونازك ولميعة يلتقون في بيت شرارة أسبوعيّا، وطالما تردد صوتُ الجواهريّ ومناقشات حسين مروّة الفكرية والسياسية في منتدى بيتهم. ولا عَجَبَ بعد أن يشهدَ القلبُ الذكي والذهن اليَقظ والجوهر الكريم لهذه الشّابة كلّ ما يجري في الميدان العراقي والعربي في الأربعينيات والخمسينيات، وخلال ذلك تشهد أيضًا الحيفَ الذي يُصبّ على والدها وأصدقاء عائلتها، إذ يعتقلُ أبوها وعمّها ويسجنان، وتُسقطُ الجنسيّة العراقيّة عن حسين مروّة فيهاجر وأُسرته العراق إلى لبنان، ويضطر شرارة إلى امتهان مِهن غريبةٍ عليه بعد أن فُصل من وظيفة التدريس (شرارة، ٢٠١١). ولا عجب أيضًا أن تجدَ حياة في الحزب الشيوعي والحركة اليسارية في العراق آمالًا تلوّح لها بالإصلاح والعدالة، فتنخرطُ وهي بِسِنِّ السابعة عشرة في صفوفه، وتعملُ مجتهدةً في برامجه واجتماعاته، وتمتثل لتعليماته، ولكنها سرعان ما تُدركَ أن ميزان أي حزبٍ يختلّ إذا ما وُضِع موضع السلطة، وأنّ ظلال الإنسانية في أفعاله تتقلص حدّ أن تختفي إذا ما عرضت له مَزَلّات الحُكم، وأبوها محمد

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

شرارة نفسه لم يسلم من قبضةِ رفاقه الشيوعيين وتشنيعهم عليه (بلقيس، ٢٠١١)، مما أَنصلَها ذلك من انتمائها وانسلالها بهدوء وحكمة من الحزب فيما بعد.

وثَمّة مشقّةٌ أَلَمت بتعليم حياة، فَمُنِعت بعد تحصيلها البكلوريا من نيل مقعدها في جامعة بغداد، فدرست في سورية، ثم في جامعة القاهرة، وهنالك ما انفصلت عمّا نشأت عليه من معرفة الأدب العربي ومزاولة العمل السياسي والمجاهرة بالآراء الواضحة، وضمّت إلى ذلك دراسة الأدب الإنكليزي، ثم وجدتْ في ابتعاثها إلى جامعة موسكو لدراسة الأدب الروسي مُتنفسًا يوقّيها تبرّمها بالحزب الشيوعي وأفعاله وضجرها بما آلت إليه الثورةُ عقب الخمسينيات في العراق.

ولم تكن حيازتُها على حقّها في التعيين ومزاولة التدريس بجامعة بغداد أقل عُسرًا مما مضى في مسارات حياتها الأولى، ولعلّ طوايا هذه المرحلة من حياتها انفتحت على بابٍ لن ينصفق من الأرزاء. وفي هذه الأثناء قلمُها يتعدى بيئتها، ورؤيتها تتّضح، ومقدرتها تزداد، وإصرارها له أثمانٌ أيسرها أن تُطاردها عيونُ أمن الجامعة، وتستدعيها إدارة البعث إلى الانتماء للبعث فتمتنعُ، وكيف يُرجى منها الانضمام إلى البعث بعدما أذاقَ زوجَها الدكتور محمد صالح سميسم (بلقيس، ٢٠١١) من الكأسِ المُرّة التي ما كانت غيرها شرابًا دمويا للشعب كلّه. والبعث وإدارته التعليم لا يقف عند حدٍّ ليزري بخِيرة الشخصيات الأكاديمية، ولا يعيبه أن تُنقلَ حياةُ بأمرٍ إداريٍّ من جامعة بغداد إلى مصنع إسمنت في الديوانية جزاء رفضها الانتماء للحزب الحاكم في السبعينيات!! وهي في غضون هذه الأوضاع الدكناء كانت تُصانِع العزلةَ، وتصبر على ما ابتليت به، وتقشعُ تلك السحابةَ السوداءَ بالكتابة والتأليف والترجمة، وتكاد في كلّ عَقْد تُنجزُ كتابًا أو كتابين ودراسةً، وتجمع إلى ما أَلَّفت ترجمتين أو أكثر لعملين أدبيين مرموقين (بلقيس)، وهكذا اتّخذت من صَرف ذهنها ووقتها وجهدِها إلى العمل الفكري والأدبي عُكازًا تستعين به على ثقل الحياة، ونأي المعارف وخُلّة العائلة والأصدقاء، إضافة إلى اتّقاء شرّ السلطة ورقابتها، فتجد من أَدركها في كليّة الآداب بجامعة بغداد يروي " هي غير الأخريات في كلّ شيء ، وهي غير الآخرين أيضا حتى كأن. ليس بينها وبينهم سبب، وقلّما كان بينها وبين أحد كلام، كانت كأنّها تفرّ من شيء ما إلى الكُتب تُغرق نفسها فيها" (عدنان، ٢٠١٤، ٧٦). وأيضًا يؤيد ما يزعمه هذا البحث من أنّ حياة مَرأة مثقّفة التزمَتِ الكتابةَ والتأليفَ موقفًا ساميًّا لن تدعه، وأداةً لا تُحسن العملَ بها غيرُها بل أغيارها من الرجال على صعيد الجامعة والثقافة، "فلم تكن الكتابة لديها لهوًا وتزجية وقت، وإنما كانت رسالةً ترمي إلى الاستنارة وإشاعة القيم الرفيعة في ما حولها ومحاربة الظلام، ولم يكن طريقها إلى ما تُريد سهلًا معبّدًا، بل كانت الثّنيات لا تفتأ تتراءى على جنباته" (عدنان، ٢٠١٤، ٧٨).

وفي عقد التسعينيات في العراق لا يزالُ الأفقُ متلبّدًا بسوءِ الحُكم وضياع الإنسان وخواء التعليم، وكان الأستاذ يومذاك محرومًا من السفر والنشر والمشاركة خارج الوطن، وما كان لحياة أن تزور بعضًا من عائلتها في لبنان، وما كان حتى لابنتيها أن تتوظفا، وما قُبِلَ حتّى طلبها الإحالة على التقاعد، وأخذت نوافذ الحياة على ضيقها وخليط ما ينفذ منها تتغلّقُ بعيني حياة حتّى وقع ما وقع يوم الأوّل من آب عام ١٩٩٧، ولا شكَ أن العريضةَ التي قدمتها الأديبة شرارة إلى

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

رئيس الجمهورية طالبة فيها السماح لها ولابنتيها بالسفر دون مُحرم وإعادتها عليها من الجهات المختصة لتكتبها بصيغة الرجاء والالتماس والتضّرع لا بصيغة الاستحقاق والجدارة قد هيّجت السلطة عليها بحيث لا رجعة في أمر تصفيتها تصفية غامضة وماكرة.

ومن وراء ذلك صورةٌ منقطعةُ النظير في العراق والعالم العربي للمرأة المثقفة، وقد تكاملت عناصرها من التّنشئة الأولى والتغذيّة الأخلاقية والتعليم السليم وروح النِّضال وبَرقُ الفِكر لتكون كلّ هذه العناصر كيان حياة شرارة، وقد أحدقت بها الأزماتُ، فشرعت ترويها في إذا الأيامُ أغسقت.

المَبحث الثَّانِي: صور الأَزْمَة في رواية "إذا الأيام أَغْسَقَت":

أولًا: وَصْفُ الرِّواية:

هذا البحثُ لا يريدُ أن يعرّفَ الروايةَ، ولا يلجُّ مِهادَها التأصيليَّ الرحيبَ، إنّما يبتغي ترسيخ المعنى القارّ لها والدّال على أنّها جنسٌ نقدي، يقفُ منشئُه عند الواقع، وينفذ إلى طَيَّات أحداثهِ مُستعينًا بفِكرٍ رصينٍ وفَنٍّ أصيل، فيبينُ عن مُرادِه في شخصيةٍ قد تجسّدت ملامحَ ومشاعرَ ورؤى يتنقّل القارئ في أماكنها ويدركُ أزَمَنَتَها. وهذا مما لا يتأتى لمن يكتبُ اليومَ رُكامًا من الألفاظ ويسميه روايةً، ولو صحَّ ذلك لَما يجدُ قارئ الروايات العالية الفنّ لذةً ومتعةً ولُبًّا نَدُر تكرارها في الكتابة الروائية، حتّى وإن قرأها قراءات عديدة ومرات كثيرة. وهذه الرواية التي بين يدي البحث لم تُلف عنها دراسة سابقة سوى بضع مقالات صُحفية تعاطف كُتّابها مع مآل مؤلّفتها، وأهملوا نَصّها، وهو من النوع الفريد في باب التعبير عن ضمير المثقّف الذي لم يركب الموجة السائدة يومئذٍ، ولذلك مُسوّغٌ من السياسةِ وَرَدَى الحربِ وظلام الحُكم التي استبدت بالراويةِ حياة، فجعلتها تنشدُ تدوينَ الموقف بوضوحٍ شديد، موقف الإنسان وموقف المثقّف والأستاذ الذي لا يلين ليداهِن الأيديولوجية الزائفة السائرة بالناسِ، والذي توالت عليه دُجى متلاحقة من المِحن التي حاكتها السلطة نفسها للأديبة شرارة، وقد اكتمن عنوان الرواية "إذا الأيامُ أغسقت" بأسلوبه الشّرطي المقترن بالزمن الماضي؛ ما سينبغي سرده من المِحن، وكأن الراوية وضعت ما بعد إذا الظرفية موضع تَمثّل المرحلة التاريخية والسرد الذاتي للأحداث في فصول الرواية. وشقيقة الكاتبة تؤكد ذلك بقولها "إن هذه الرواية تسجيل لحياة الفرد الجامعي العراقي ومعاناته اليومية في إيجاد لقمة العيش محاولًا أن يصون كرامته وكيانه كإنسانٍ مفكّر، بالرغم من الجو القاتم الذي يحيطه ويطبق عليه من جميع النواحي المادية والمعنوية والفكرية التي صوّرتها حياة بدقة في روايتها" (بلقيس، ٢٠١١، ٧)، وما لن يجرؤ على الحديثِ به ولو مع نفسه أكبر الشخصيات الأكاديمية في جامعة بغداد خلال حكم البعث، وإبّان عقد التسعينيات الشَبِيع بِكُرَب الحرب والحِصار وحُمقِ السلطة، وهو الزّمن الذي استوفاه سردُ إذا الأيام أغسَقَت استيفاء قَصديًّا (بلقيس، ٢٠١١، ٦٩) . كما إن هذه الرواية قد فرغت منها صاحبتها قبل زمن وجيز من وفاتها، وكأنها تريد أن تكون آخر صوت تحتجّ به على تبديد السلطة حياتها!

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

وإذا كانَ عنصرُ العاطفة في السّرد يختبئ في طَوِيّة الشخصية وإجادة تجسيدها فإنّ الدكتور نعمان هادي بطل الأيام والضمير المتكلّم عن دُجناتها متدفق الاحساس، مُدِلّ الفِكر، مُصيب الرؤية، وثيق النفس، وهو القِناع الذي تَخَفَّتْ وراءه الكاتبةُ ليسعَ سردها كلّ ما تريد التنفيس عنه، والإفشاء بعِبء تلك المرحلة التسعينية المأساوية من حياتِها وحياة أضرابها الذين تقلّبت بهم أفاعِيل السُّلطة. وقد أَوكَدَ اعتمادُ الراوي ضمير المتكلّم لتعيين إحدى شخصيات الرواية أنّ الراوي نفسه هو هذه الشخصية (زيتوني، ٢٠٠٢، ٩٦) التي هي صِنو شرارة ومثيلها في الواقع، ومشهد الرواية الأول يشي بذلك " كنتُ أتجنب دائمًا أوقات الازدحام في المواصلات العامة وانتظار السيارات طويلًا، ولذلك اعتدتُ أن أخرج من البيت مبكرًا كي لا أتأخر عن موعد محاضراتي التي تبدأ في الثامنة والنص." (شرارة، ٢٠١١، ٩١) . وهذه الشخصية منسجمة مع الشخصيات المركزية الأخرى في الفضاء الروائي، ولا شك أنها ذات مساس بزملاء شرارة ورصفائها في الجامعة، وشرارة بلُبّها اليقظ وحسّها الملتزم قد تسرّبت إليها شواظٌ من معاناتهم ومآلاتهم العسيرة التي هي بعضٌ من أزمتها الكُلّيّة. ورُبّما يهتدي القارئ الواسع المعرفة إلى أن في وسم إحدى شخصيات الأيام الأديب والمترجم والأكاديمي الألمعي محمد يونس ـ هو زميل حياة شرارة في فرع اللغة الروسية بكلية الآداب، وكتب معها كتاب مدخل إلى الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ـ . وأيضًا هذا الفضاء ما أنافَ عن الحقيقة التي تشغل الكاتبة، بل صاغتْهُ بوحيٍ ثَرِيٍّ من أحداث عاشَتْها وانتهى إلى نَفسِها وَقْعُها بحيث يُجانبُ الصواب إذا سُلّم بالمنظور النقدي القائل إن الفضاء " تشكيل خيالي للواقع أو لفضاءٍ حقيقي" (زيتوني، ٢٠٠٢، ١٢٨) . هو الجامعة ببغداد (شرارة، ٢٠١١، ٩٨) مسوّرة بأمنِ البعث، ومحفوفة بأيدولوجيته المستبدّة، ومقيّدة بأساليبه التعسفيّة وبطشه. وإذا كان الفضاءُ مِمّا ينجبُه الوَصفُ في السرد، فإنّ حياة قد أجدّت فَأَهَبَت اللُّغةَ والمَشاهِد لِتتلّبسَ بمكانِ الشخصيات وتكتسي بأدوارها حتّى لا يكون شيء قد نُقِص في فضاء الأيام إذا أغسقت، فيردُّ على لسانِ بطلها وهو الراوي دكتور نعمان " وصلتُ إلى مبنى الكليّة وسمعتُ صوته يتساءل بغضبٍ ويعلو ويزجر قبل أن أراه. زادَ حجم الخوف في داخلي وبدأ يهبط إلى ركبتي وقدمي ويصعد إلى حنجرتي{...} صوت العميد المتهكم: ادخل، ادخل، يرن كناقوس الهزيمة في دماغي الحواس مجروحة والصف بارد موحش." (شرارة، ٢٠١١، ١٠٠ ـ١٠١) . ولعلّ أبين خصيصة في شخصيات هذه الرواية هي التقاؤها على مُنعطف واحد دُفعت إليه، فلا ينجّي إحداها سيرتها الحسنة أو عِلمها أو كُتبها، جميع أدوارها الجامعية تتصاعدُ نحو خطٍ سردي تتوزّع على امتداده العَقبات التي أهونها ينمّ عن مِحنةِ شرارة! وهي لا تتردد في بَثّها بلقطاتٍ صريحةٍ وإشاراتٍ ما وراء سرديّة دقيقةٍ ومكثّفةٍ. وكان لا بُدّ أن تتّسق فصول الرواية، وتتآلف أحداثها في نسيجٍ لسانيّ ينشرُ معاني الغسق ويبسط جَهام الحياة، إذ يُلفَح المتلقي بقُبحه من عَتبة العُنوان حتى فصول الرواية العشرة.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

ثانيًا: أنماط الأَزمة في الرِّواية:

ثَمّةَ ما يستحوذُ على وعي المتلقي لدى قراءته هذه المسرودة، وقد استأثرت بموضوعاتٍ ومضامين اتّسعت لِتتّحِدَ في تكوين قصديةِ المُنشئةِ، وهي خُلاصة تجربتها الإنسانية والأدبية، وعِلّة عملها الروائي التي تكوّنت في ذاتها شيئًا فَشيئًا، مثلما صُنعت في ذواتٍ غيرها بِمنوالِ أَزمة وَشَكْلِ نَكْبةٍ. وبطبيعةِ الأَزمات التي تخلقُها الأنظمةُ السياسية تؤثر في عالمِ الذات بل تستنزف وضعَها الحياتي برُّمَتِهِ، وتشخيصُ ذلك قد تمَّ في أربعمئةٍ وعشرين صفحةً ما أَنفَت من كَشفِ نهج السلطة في إغراقِ حياة بِلُجَجٍ مهولَةٍ بعضها يفضي إلى بعض، ونلمّ بها في أنماط تنطوي على تفصيلات واقعية ثقيلة على النَّفس هي:

ـ أَزْمَة نَفسيّة ماثِلَةٌ في الخوفِ من الخوضِ في السياسة والانغماس في كلّ ما من شأنه يهيج السلطة أو يثلبها، ويبلغ الخوفُ مبلغًا في ذات الكاتبة التي تتخفى وراء الدكتور نعمان بطل الرواية وشخصيتها المركزية أن تطلب إحالتها على التقاعد من عملها الجامعي اتّقاء لمكائد البعث وتربّصه بها، وتجنبًا للمحيطين بها أيضًا، على أن هذا الخوف لا يقتصر عليها وحدها فحسب، إنما هو مصهرٌ كبير أعدّه حكم الاستبداد وأذاب فيه الشعب كلّه، وشاهد ذلك في الرواية " فأنا أخاف لاقطات الأصوات، البشرية منها والآلية، وأخشى مجساتها الحساسة التي قد تستطيع استكشاف أعماق ذهني نفسه وتعرفُ خواطري وأفكاري وتلقي عليها أنوارها الساطعة وتمسكني متلبساً بها. أطلّ الخوف أمام ناظري في البداية كبرقٍ خاطف يسبي الأبصار ثم توارى. غير أنه لم يغب نهائيا، بل ظل يظهر بين آونة وأخرى بدرجات تختلف في قوتها وارتفاعها وعمقها. كان يتخذ شكل دخان رمادي كثيف يلتف ويتصاعد في دوائر مرئية ثم ينتشر عرضاً وطولاً ويتسلل إلى النفوس وينبت في حناياها ويرقد فيها على نحو مزمن آثاره الرمادية الكابية. لم يبق أحد بمنأى عنه، فأحسّ به الناس بكل فئاتهم من الفقراء إلى الأغنياء" (شرارة، ٢٠١١، ٩٥). كما تطالُ خشيتها المكانَ الذي كان أليفًا لها، حيث الجامعة وإدارتها تُذعرها، فتصفها على لسان البطل: " لم تمضِ حادثة تأخري خمس دقائق عن الحصةِ الأولى بسلام. ظننتُ أن العمل اليومي والاهتمامات الصغيرة التي لا تُحصى قد جَرَفتها وطوتها في دوامتها مثل عشرات التفاصيل العابرة التي تمر بنا، فتزعجنا أو تسرنا أو نتخذ منها موقفاً غير مكترث وننساها. غير أنني في منتصف الأسبوع التالي عندما فتحتُ باب غرفتي، وأزحتُ الستائر السميكة المُسدلة على شبابيكها وتسلل الضوء إليها، رأيتُ ورقة كبيرة موضوعة على منضدتي، فيها تساؤل مكتوب باليد وبالحبر الأزرق حول سبب تأخري الأحد الفائت عن موعد الدوام الرسمي. جمدَ قلبي ونَبَتَ عرق بارد على ذقني وجبهتي، ولم أستطع أن أصدّق ما قرأتُه. أضأتُ مصباحي النيون فشعشعت الغرفة بالنور، وأعدت قراءة الورقة، وكان التساؤل واضحاً لا لبس فيه. جلستُ على الكرسي حائراً واعتراني إحساس فجائي بالتعب. كنتُ بحاجة إلى الكلام لأروح عن نفسي، فلن أستطيع أن أفكر أو أعمل وصدري مخنوقٌ بالاحتجاج الكئيب الذي أريده أن ينطلق منه. كان حجمي الكبير يصارع بصمت الحجم الصغير الذي يُفرض عليّ ويفقدني الاستقرار والهدوء ويثير فيَّ الغيظ والألم. بقيتُ جامداً في مكاني أبحلق بعجز واستسلام في السؤال الجارحِ، ولا

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

أدري بماذا أجيب! إنني أعزل مجرد من حق الاعتراض والدفاع عن نفسي، والعميد يصول ويجول باعتداد وثقة أمامي، ويجد متعة في إحراجي، متعة تُشعره بقوته اللامتناهية." (شرارة، ٢٠١١، ١١٨ ـ ١١٩) وترى هذا الشعورَ الممقوتَ الذي حفزه عميد الكليةِ هيِّنًا إزاء ما هو أعظم رُعبًا من عَسكرةِ المجتمع وسوقِ الأجيال إلى قدرِ الحرب الذي لا تتوقف قناة العراق الرسمية من إذاعته وتذكير الشعب به، مما لا تُطيقه طوية شرارة السليمة ومسؤوليتها الإنسانية الحقّة، فتروي: "فتحتُ كتابًا وحاولت أن أقرأ منه. ظل صوت العميد يلاحقني ويكدر نفسي ويبث فيها الحيرة والقلق. شرد ذهني وتراءت أمامي القبضتان الضخمتان القويتان التي تقابل إحداهما الأخرى عند طرفي شارع عريض تجري فيه الاستعراضات العسكرية والجماهيرية، وتُمسكان سيفين طويلين هائلين، يتقاطعان في الأعلى ويشكلان قوس النصر ومن تحتهما كانت تمر صفوف الجنود وتذهب إلى نهايتها المعروفة: إلى الأسر أو الموت أو التشويه. كان التلفزيون يعرض تلك الصفوف الطويلة اللامتناهية التي تشكل مجموعات هندسية متناسقة وتسير في إيقاع عسكري منتظم في زيها الموحد الذي ترتديه والبنادق التي تحملها في أيديها. كانت تملأ العين بحيويتها وجمالها وقوتها، مما يجعل نهايتها، وهي تتحول إلى جثث متناثرة فوق أرض المعركة وقد أحرقتها النيران أو نزفت دماً، أكثر ألماً وفجيعة في النفوس وجدتُ نفسي تحت ذينك السيفين الحديدين اللذين سارَ تحتهما الجنود والجموع الغفيرة واختلطت أصداء خطواتي وأنفاسي وأفكاري معهم. كانا يطلان أمامي كلما ضاق صدري وأغسق ذهني معها، فاستسلم ذاعناً إلى قدري الذي لن أستطيع الفرار منه." (شرارة، ٢٠١١، ١١٧).

ـ أزَمةٌ أخلاقيّة قائمةٌ على قهر الإنسان وقلبه ضدّ ضميره وسلكه في غير إرادته السّويّة، وقد انشغل السرد بهذه المحنة في مواضع كثيرة منها قسر البطل نفسه على التقاعد ليحفظ مبادئه السامية بقوله: " ارتسم أمامي بوضوح المأزق الذي أنا فيه، فالتقاعد يلغي إمكاناتي ونشاطي، والاستمرار في العمل يعرضني لمشاهد ومهانة ومواقف تأباها طبيعتي، ولكنني أرضخ لها لأن عليّ أن أختار بين رضا المسؤولين عني أو غضبهم" (شرارة، ٢٠١١، ٢٦٠) ، وحتى لو وقعَ أمر التقاعد، فليس قبل أن يُرغم الأستاذ نعمان على تزييف ضميره إرضاء للعميد أو رئيس القسم اللذينِ يمثّلان السلطة في أقسى واجباتها وأحطّ أخلاقها " دخلَ العميد غرفتي ذات يوم، وأخذ يكلمني مباشرة ودون تمهيد للموضوع فقال: لدي قضية أريد أن أكلمك فيها، ويجب أن تنفذها. الأمر مستعجل، فقبل قليل اتصل بي أحد المسؤولين وطلب مني أن أحلها وأن أخبره بالجواب فوراً. المسألة تتعلق بالطالب محمود في المرحلة الثالثة، لقد أعطيتَه صفراً في الفصل الأول وخمس درجات من عشرين في الفصل الثاني، ومجموعه خمس من أربعين! أي إنه راسب ولا أمل في نجاحه! يجب أن تعطيه على الأقل درجة نجاح حتى يستطيع أن يجتاز الامتحان النهائي.

ـ كيف أفعل هذا إنه لم يداوم في الفصل الأول، وحضر مرة أو مرتين في الفصل الثاني. والخمس درجات

التي أعطيته إياها لا يستحقها وإنما كانت مساعدة مني، لا يمكن أن أدوس على ضميري بهذا الشكل!

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

أجاب بصرامة وغضب: كلنا لدينا ضمائر ولست أنت وحدك! هذا عمل أكلفك به ولا تستطيع رفضه، لقد جاء من مسؤول كبير وعلينا تنفيذه، أنا وأنت!" (شرارة، ٢٠١١، ٢٦٤-٢٦٥). ولا تزال أزمة شرارة تتراءى في بطل روايتها الذي يشقى مع الطلبة أيضًا الذين أفرغوا من طموحاتهم وأدرِجوا على خلاف الصدق والتهذيب (شرارة)، وأيضًا عُدِمَ النجباء من الناس، والخُلَّص من الأصدقاء والخَلي من الهمّ من الزملاء في مجتمع تضعضعت قيمُهُ، واتّضعت موازينه بحيث حلّت في الجامعة مسوخٌ عن نساء (شرارة، ٢٠١١، ١٠١، ١٣٧) تدَّعِي الأكاديميةَ، وما هي سوى عيون وأذناب وأيدي امتهنتها السلطةُ لتذيق مصانعي العلم ما لا يتجرعون، ولتفرض ثقافتها الباغية عليهم، والتي صرفتهم عن شغلهم العلمي إلى ساحات التدريب العسكري.

ـ أزمة عَوَزٍ وافتقار وهذه تجلّت في أساليب لا يمكن للإنسان الرزين أن يتخطى شناعتها، فأستاذ الجامعة في الذُّروة من المجتمع والصفوة من الناسِ تضطره حاجاته اليومية إلى بيع كتبه في معرض الكليّة التي يعمل فيها (شرارة، ٢٠١١، ٢٣٠) تارة، وإلى وقوفه في طوابير مهينة مع زملائه ليتسلم الهبة الشهرية التي تعادل كيلو غرام من الحُمّص (شرارة، ٢٠١١، ١٣٠- ١٣١) تارة، وإلى بيع سيارته ليشتري ملابس لائقة بمظهره الجامعي (شرارة، ٢٠١١، ١٨٨-١٨٩) تارة أخرى. وما أزرى منظر الجامعيين وهم يتزاحمون ويتدافعون ليبلغوا أدوارهم في الوصول إلى غرفةِ قياس أوزان أجسامهم وتستبد بهم الخشية من أن يتجاوزوا الوزن المحدد فيفصلوا من عملهم أو يُقرّعوا على ما تظنُّه السلطة جُرمًا تنزلُ بهم عقابًا على اقترافِه (شرارة، ٢٠١١، ٢٩٠)، وكانت تلك طريقة مفروضة بالغة في حمق السلطة وعبثها فيما لا يمكن للمرء ضبطه أو السيطرة عليه.

وما تكادُ تفرغ من تعيين أزمة حياة في هذه الرواية حتى تؤكّد ما كُتبت من أجله، وهو إيفاؤها بدور المثقّفة التي تنقض الإيديولوجيا السقيمة، وتدين نتائجها، وتبقى تصطرع معها وتحتدم مواقفها إزاء ضلالها، مما يبدو أنها في أزمة وجودية ومحنة تاريخية أرادت الكتابة عنها وتوثيق ما لم يُصطنع فيها.

الخاتِمة:

قد بلغت المقاربةُ الواصفة لتجربة الأديبة حياة شرارة، والمقاربة التحليلية للمشاهد السردية المُتّسقة في روايتها ما قصدت إليه من وضوح الدور الثقافي الملتحم بالهمّ الإنساني والمتأهب لإلغاء حيف السلطة، ونقض تمثيلاتها الجائرة في الوجود الفردي والجماعي الذي يستصفى منه المجتمع الجامعي، وكان لا منجاة من أن تحكم تلك التمثيلات قبضتها الشديدة حول كَيان حياة ومسارها المعرفي والاجتماعي، ثم تحيقها بمصيرها الذي انجلّى عن أزماتٍ تولّدت واحدةً أقدر من الأخرى على إيذاءِ الإنسانِ وتشويهه وسدّ آفاق الحياة الرحيبة عليه، ممّا يجعله مُقاسيا أزمة كلّية وتأريخية.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

1- **Data Availability Statement: (The manuscript includes all the data used in the study.)**
2- **Conflict of Interest Statement: (The authors confirm that there are no conflicts of interest that could affect the content of this research.)**
3- **Funding Statement: This research was fully funded by the authors without any financial support from other entities.**

المصادر والمراجِع:

ابن فارس، أحمد. (١٩٦٩). معجم *مقاييس اللغة*. (عبد السلام محمد هارون، محقّق). (ط٢). شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
ابن منظور. (د.ت). *لسان العرب*. دار المعارف.
آوثوايت، وليم. (٢٠٢٢). *قاموس بلاكويل للفكر الاجتماعي الحديث*. (معهد دراسات عراقية، ترجمة. هيأة البحرين للثقافة والآثار.
زيتوني، لطيف. (٢٠٠٢). معجم *مصطلحات نقد الرواية*. مكتبة لبنان ناشرون.
سارتر، جان بول. (١٩٧٣). *دفاع عن المثقفين*. (جورج طرابيشي، مترجم). منشورات دار الآداب.
سعيد، إدوارد. (٢٠٢٢). *المثقف والسلطة*. (محمد عناني، مترجم). مؤسسة هنداوي.
شرارة، بلقيس. (٢٠١١). *مقدمة رواية إذا الأيام أغسقت*. دار المدى.
شرارة، حياة. (٢٠١١). *إذا الأيام أغسقت*. دار المدى.
عدنان، سعيد. (٢٠١٤). *في أفق الأدب*. دار تموز.
كوبر، آدم. (٢٠٠٨). *الثقافة التفسير الأنثروبولوجي*. (تراجي فتحي، مترجم). (ليلى الموسوي، مراجع). عالم المعرفة.

References:

Adnan, Saeed. (2014). *On the horizon of literature*. Dar Tamuwz.
Ibn Faris, Ahmed. (1969*). Dictionary of language standards*. (Abdul Salam Mohammad Haroun, investigator). (2nd edition). Mustafa Al-Babi Al-Halabi Library and Printery Company in Egypt.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

Ibn Manzur. (without history). *Arabes language.* Dar Al Maaref.
kuper, Adam. (2008). *Culture The Anthropolgist's Account*. (Taraji Fathi, translator). (Laila Al-Moussawi, reviewer). knowledge world.
Outhwaite, William. (2022).*The Blackwell Dictionary of Modern Social Thought*. (Institute of Iraqi Studies, Translation). Bahrain Authority for Culture and Antiquities.
Sartre, Jean-Paul. (1973). *Defence about Intellectuals*. (George Tarabishi, translator). Dar Al Adaab Publications.
Said, Edward. (2022). *The intellectual and the authority*. (Mohamad Anaani, translator). Hindawi institution.
Sharara, Balqes. (2011). *Introduction to the novel If the Days are Dusk*. Dar Al Mada.
Sharara, Hayat. (2011). *If the days are Dusk.* Dar Al Mada.
Zatouni, Lateef. (2002). *A dictionary of criticism novel terms*. Lebanon Library Publishers.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317